ذخائر الفكر الإسلامي

مبادئ الإسلام

تأليف
ابي الأعلى المودودي

ترجمة
محمد عاصم الحداد

الطبعة الثالثة

الناشر
مكتبة الشباب المسلم
دمشق – ص . ب ٥٥٦

ذخائر الفكر الاسلامي ـ ١

الطبعة الاولى : ١٣٧٣ — ١٩٥٤ — ٣٠٠٠ نسخة
الطبعة الثانية : ١٣٧٦ — ١٩٥٧ — ٤٠٠٠ نسخة
الطبعة الثالثة : ١٣٨١ — ١٩٦١ — ٥٠٠٠ نسخة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الكريم

تقــديم

هذه رسالة ألفها الاستاذ السيد أبو الأعلى المودودي ، قبل بضع عشرة سنة ، للقراء عامة ، ولتلاميذ السنوات الاخيرة من المدارس الثانوية الجديدة خاصة .

والذي جرت عليه عادة المدارس الثانوية والكليات الجــديدة عندنا ، في تعليم الطلاب أمور الدين ، أنها تلقنهم طائفة من المسائل الفقهية ، كمسائل الصلاة والزكاة والصوم الخ .. على النحو القديم الجاف ، ولا تهتم الا قليلا بتعريفهم عقائد الدين ، وما يدعمها من الحجج والبراهين ، وما فيها من الحكم والاسرار ، حتى إن الطالب عندما يتخرج من المدرسة او الكلية لا يكاد يعرف ما هي حقيقــة الاسلام ؟ وماذا يريد من الانسان ؟ ولماذا يريــده ؟ وما هي علاقــة عقائده بالحياة الانسانية ؟ وما هو نفعها اذا قبلها ، أو ضررها اذا رفضها ؟ وهل يريد الاسلام أن يفرض هذه العقائد على الانسان بدون أي حجة ، أم عنده ماينهض حجة على صحتها وصدقها ؟

ومن الظاهر أنه لا بد من هذه الامور كلها لفهم الدين وإصلاح العقيدة ، فما لم ترسخ هذه الامور في ذهن الانسان ، وما لم يعرفها

حق المعرفة ، فانه لا يكاد يتمتع بأي فائدة من تعليم المسائل الفقهية، ولا يكاد يطيع أحكام الشريعة على الوجه المرضي المنشود .

وكذلك مما لا بد منه ، قبل أن يلقن الطالب مسائل الصلاةوالزكاة والصوم الخ ، أن يلقى في روعه مافي عبادات الاسلام وأحكام شريعته من الحكم والاسرار والمصالح ، ليستعد لاتباع هذه الاحكام من قرارة نفسه ، وسويداء قلبه . أما طريق أداء الصلاة وتعليم التفاصيل المتعلقة بها ، فانما يفيد من كان مستعداً لأدائها. وأما من كان لايرضى بالصلاة أصلا ، ولا يريد أداءها ، فأي فائدة تعود عليه اذا شرعتَ تعلمه طريق أداء الصلاة وتؤنبه على تركها ؟ الحاجة شديدة قبل أن تبين للطالب أحكام الصلاة ، الى أن تبين له ما هي الصلاة في حقيقة أمرها ، ولماذا فرضها الله عليه ، وما نفعها اذا أداها ، أو ضررها اذا أضاعها ؟ ولك أن تقيس على ذلك أحكام الشريعة الاخرى أيضا .

وقد ألف الاستاذ المودودي هذه الرسالة ، واضعاً أمام عينيه هذه الحاجة الملحة ، ونحا فيها نحواً جديداً لتعليم عقائد الاسلام وأحكام الشريعة ، وهو مختلف الى حد بعيد عن طريق التعليم القديم، وأقرب ما يكون لذوق الناس في هذا الزمان .

وقد ظهرت من هذه الرسالة الى الآن ثلاث عشرة طبعة ــ في كل طبعة نحو ٥٠٠٠ أو ٦٠٠٠ نسخة ــ بالاردية ونقلت الى الانكليزية والفرنسية وكثير من لغات الهند وباكستان الاهلية . وها نحن أولاء نتشرف بتقديمها الى القراء الكرام بعد التعريب ، عسى أن تنال

الحظوة بين الناشئة الاسلامية في بلاد العرب ، وأن تتبعها الرسائل الاخرى من هذه السلسلة ان شاء الله .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

لاهور في ١٥ شوال سنة ١٣٧٣ هـ
١٧ يونيو سنة ١٩٥٤ م

كتبه العاجز الفقير الى رحمة الله
محمد عاصم الحداد

الفصل الأوّل

الإسلام

لماذا سمي الدين بالاسلام ـ معنى كلمة الاسلام ـ حقيقة الاسلام ـ حقيقة الكفر مضار الكفر وعواقبه السيئة ـ فوائد الاسلام .

لماذا سمي الدين بالاسلام :

إن جميع ما في الأرض من مختلف الديانات ، قد سميت بأسمائها، إما نسبة الى اسم رجل خاص ، أو أمة معينة ظهرت وترعرت بين ظهرانيها . فالمسيحية مثلا أخذت اسمها من السيد المسيح عليه السلام ، وتسمت البوذية على اسم بانيها بوذا ، واشتهرت الزردشتية باسمها لأن مؤسسها وحامل لوائها كان زردشت . وكذلك ظهرت اليهودية بين ظهراني قبيلة تعرف بيهوذا ، فسميت باليهودية ، وهلم جراً . .الا الاسلام ، فانه لا ينتسب الى رجل خاص ، ولا الى أمة بعينها ، وانما يدل اسمه على صفة خاصة يتضمنها معنى كلمة الاسلام . ومما يظهر من هذا الاسم أنه ما عني بايجاد هذا الدين وتأسيسه رجل من البشر ، وليس خاصاً بأمة معينة دون سائر الامم، وانما غايته أن يحلي أهل الارض جميعاً بصفة الاسلام ، فكل من

اتصف بهذه الصفة ، من غابر الناس وحاضرهم هو مسلم ، ويكون مسلماً كل من سيتحلى بها في المستقبل .

معنى كلمة الاسلام :

واذا راجعت معاجم اللغة ، علمت أن معنى كلمة الاسلام هو « الانقياد والامتثال لأمر الآمر ونهيه بلا اعتراض » . وقد سمي ديننا بالاسلام لأنه طاعة لله وانقياد لأمره بلا اعتراض .

حقيقة الاسلام :

من المعلوم أن كل شيء في هذا الكون ، منقاد لقاعدة معينة ، وقانون خاص . فالشمس والقمر والنجوم مسخرات تحت قاعدة مطردة ، لا قبل لها بالحراك عنها والخروج عليها ولو قيد شعرة ، والأرض تدور حول قطبها ، ولا يدب في ما قدر لها من الزمن والحركة والطريق ، دبيب التغير والتبدل . والماء والهواء والنور والحرارة كلها مذعنة لنظام خاص . وللجمادات والنباتات والحيوانات ضابطة ، لا تنمو ولا تنقص ولا تحيا ولا تموت الا بموجبها . حتى إن الانسان نفسه اذا تدبرت شأنه ، تبين لك أنه مذعن لضابطة الطبيعة إذعاناً تاماً ، فلا يتنفس ولا يحس حاجته الى الماء والغذاء والنور والحرارة الا وفقا لقانون الطبيعة لحياته . ولهذا القانون نفسه ينقاد قلب الانسان في حركته، ودمه في دورانه، ونَفَسَه في دخوله وخروجه، وله تستسلم جميع أعضاء جسده كالدماغ والمعدة والرئة والاعصاب والعضلات واليدين والرجلين واللسان والعينين والأنف والأذن . فليست الوظائف التي تؤديها هذه الاعضاء كلها الا ما قدَّرت لها الطبيعة ، وهي لا تقوم بها الا حسب ما قررت لها من الطريق .

فهذا القانون الشامل ، الذي يستسلم له ولا ينفك عن طاعته شيء في هذا الكون ، من اكبر سيارة في السماء ، الى أصغر ذرة من الرمل في الارض ، هو من وضع ملك جليل مقتدر . فاذا كان كل شيء في السماوات وما بينهما منقاداً لهذا القانون ، فان العالم كله مطيع لذلك الملك المقتدر الذي وضعه ، ومتبع لأمره . ويتبين من هذه الوجهة ، أن الاسلام دين الكون طراً ، لأن الاسلام معناه الانقياد والامتثال لأمر الآمر ونهيه بلا اعتراض كما عرفت آنفاً . فالشمس والقمر والأرض مسلمة ، والهواء والماء والنور والظلام والحرارة مسلمة ، والشجر والحجر والأنعام مسلمة ، بل إن الانسان الذي لا يعرف ربه ويجحد وجوده وينكر آياته ، أو يعبد غيره ، ويشرك به سواه ، هو مسلم من حيث فطرته التي فطر عليها . وذلك أنه لا يولد ولا يحيا ولا يموت ، الا وفقاً لما وضع الله تعالى من قانون ، لولادته وحياته وموته . وكذلك كل أعضاء جسده ، لا تدين الا دين الاسلام ، لأنها لا تنشأ ولا تكبر ولا تتحرك الا حسب هذا القانون الالهي نفسه ، بل الحق أن لسانه ، الذي يستخدمه في إبداء آراء الشرك والكفر جهلا وسفهاً ، لا يدين — في نفسه — الا دين الاسلام . وكذلك رأسه ، الذي يكرهه على الانحناء أمام غير الله ، لا يدين الا دين الاسلام بسائق فطرته التي فطر عليها . وكذلك قلبه الذي يعمره بحب الآخرين من دون الله وإجلالهم جهلا وسفهاً ، إن هو الا مسلم من لدن فطرته وسجيته . فكلٌ قد أسلم لله وانقاد لقانونه .

اذا أدركت هذا فتعال ننظر في الواقع من وجهة أخرى .

للانسان في حياته جهتان مختلفتان :

الاولى أنه منقاد لقانون الفطرة مجبول على اتباعه .

والاخرى أنه أوتي العقل وقوة الفهم والتأمل والرأي ، فهو يسلّم بشيء وينكر آخر ، ويحب طريقاً ويكره غيره ، ويضع من تلقاء نفسه ضابطة لمختلف نواحي الحياة ، أو يقبل ما وضعه غيره من نظام للحياة. فهو غير مقيد من هذه الجهة بقانون معين ، كغيره من المخلوقات في هذه الدنيا ، بل قد أوتي حرية الفكر وحرية الاختيار في الرأي والعمل .

هاتان الجهتان المختلفتان توجدان في حياة الانسان كل على حدة .

فمن الجهة الاولى هو مسلم قد جبل على الاسلام وفطر على التزامه ، شأن غيره من المخلوقات في هذا الكون ، وقد عرفت ذلك آنفاً .

ومن الجهة الاخرى هو بالخيار في كونه مسلماً أو غير مسلم . وهذه الخيرة هي التي تجعل الانسان على نوعين :

إنسان يعرف خالقه ، ويؤمن به رباً ومالكاً وسيداً لنفسه ، ويتبع قانونه الشرعي في حياته الاختيارية . كما هو تابع لقانونه الطبيعي في حياته الجبرية ، وهذا هو المسلم الكامل الذي قد استكمل إسلامه ، لان حياته أصبحت الآن الاسلام بعينه ؛ وهو قد استسلم — رغبة وطواعية — للذي كان يطيعه وينقاد لقانونه من غير شعور من قبل ؛ وقد أصبح الآن — قصداً وعمداً — مطيعاً لربه الذي كان قبل ذلك يطيعه من غير قصد ولا إرادة ؛ وقد أصبح علمه صادقاً لانه عرف الله خالقه وبارئه الذي أولاه قوة العلم والتعلم ؛ واصبح عقله ناضجاً ورأيه سديداً لأنه أعمل فكره ثم

قضى الا يعبد إلا الله الذي أكرمه بموهبة الفهم والرأي في الامور ؛ وأصبح لسانــه صادقاً ناطقاً بالحق لانه لايقر الآن الا برب واحد هو الله تعالى الذي انعم عليه بقوة النطق والكلام ... فكأن حياته مابقي فيها الآن الا الصدق ، لأنه منقاد لقانون الله فيما لـه الخيرة فيه من أمره ، وامتدت بينه وبين سائر المخلوقات في الكون آصرة التعارف والتآنس ، لانه لايعبد الا الله الحكيم العليم ، الذي تعبده وتذعن لامره وتنقاد لقانونه المخلوقات كلها . فهو الآن خليفة الله أي نائب عنه في أرضه . فله كل شيء في الدنيا وهـو لله تعالى وحده .

حقيقة الكــفر :

وبإزائه إنسان آخر ، ولد مسلماً وعاش مسلماً طول حياته ، من غير أن يشعر باسلامه أو يفطن له ، ولكنه ما أعمل قوته العلمية والعقلية ، ليعرف من خلقه ، وشق سمعه وبصره . فأنكر وجوده ، واستكبر عن عبادتــه ، وأبى أن ينقاد لقانونه الشرعي فيمــا أوتي فيه حق التصرف والاختيار من أمور حياته أو أشرك به غيره ، وأبى أن يؤمن بآياته الدالة على وحدانيته ، وهذا هو الكافر . ذلك بأن معنى الكفر هو الستر والتغطية والموارأة . يقال : كفر درعه بثوبه اذا غطاها به ولبسه فوقها ؛ فيقال لمثل هذا الرجل «كافر» لأنه ستر فطرته وغطاها بغطاء من الجهل والسفاهة . وقد علمت أنه ما ولد الا على فطرة الاسلام ، ولا تعمل كل جارحة من جوارح جسده الا طبقاً لفطرة الاسلام ، ولا تسير الدنيا حوله بأسرها الا على سنن الاسلام ؛ ولكنه غطى عقله بحجاب مستور من الجهل والسفاهة ، وتوارت عن بصيرته فطرة الدنيا وفطرة نفسه ، فتراه لايستخدم قواه الفكريةوالعلمية إلا فيما يخالف فطرته، ولا يرى إلا ما يناقضها ، ولا يسعى الا فيما يبطلها .

ولك أن تقدر الآن بنفسك ماارتكس فيه الكافر من الضلال البعيد والغي المبين .

مضار الكفر وعواقبه السيئة :

الكفر جهل ! بل الجهل الحقيقي هو الكفر .. أي جهل أكبر وأدهى من جهل من لايعرف ربه ؟ يشاهد مصنع هذا الكون العظيم دائباً على عمله ، ليل نهار ، ثم لايعرف من خلقه ، وأوحى اليه الداب على عمله ؟ ومن ذا الذي ركب الفحم والهدرجين والاكسجين والآزوت والصوديوم والكلسيوم وغيرها من المواد التي لاحياة لها ولا عقل ، وأخرج منها كائناً عظيما خطيرا كالانسان ؟ أو ليس مما يقضي العجب ، أن يشاهد في كل ناحية من نواحي هذا الكون أشياء كثيرة ، تدل بنفسها على مايحتاج اليه صنعها وتحسين منظرها من براعة نادرة منقطعة المثال ، في الهندسة والرياضيات والكيمياء وغيرها من العلوم ، ثم لا يهديه عقله الى معرفة ذلك العزيز الحكيم العليم ، الذي عني بصنعها وإنشائها ؟ تفكر قليلا : هل يمكن أن ينفتح باب العلم الصحيح في وجه هذا الرجل الذي ضل حتى عن مبدأ العلم ، إنه مهما بالغ في التفكر والتفحص وازداد بحثاً وتنقيباً ، فلن يهتدي الى طريق مستقيم متحقق يوصله الى العلم الصحيح في أي شعبة من شعب الحياة ، لانه يواجه ظلمة الجهل في أول امره ، وكذلك لايواجه في آخره سواها .

الكفر ظلم ! بل أعظم الظلم وأشنؤه هو الكفر .. ذلك أن معنى الظلم ان تضع الشيء في غير محله اللائق به وتستعمله إكراهاً فيما لاتلتئم به فطرته . وقد عرفت ان كل مافي السموات والارض من شيء مذعن لأمر الله ، مفطور على فطرة الاسلام ، حتى

إن الانسان وجسده بكل ما يشتمل عليه من الاعضاء لم يولد الا على هذه الفطرة نفسها . نعم ، لاشك أن الله قد أعطى الانسان جانباً من حق التصرف في هذه الأعضاء . ولكن الذي تقتضيه فطرتها ألاّ يتصرف فيها الا حسب مرضاة خالقها . فالذي يكفر بالله ، إنما يتصرف في أعضاء جسده على وجه لايوافق فطرتها . تراه يعمر قلبه بظلمات الاجلال والحب والرهبة لغير الله ، مع أن الفطرة التي فطر عليها قلبه تطالبه بأن يعمره بنور الاجلال والحب والرهبة لله الصمد وحده . وكذلك يستخدم سائر أعضاء جسده ، وكل ماتحت يده من شيء في هذا الكون ، فيما يناقض مرضاة الله تعالى ، مع أن الطبيعة التي جبلت عليها هذه الاعضاء والاشياء تقتضيه ألاّ يستخدمها الا طبقاً لما جاء به قانون الرب تعالى . فقل لي بالله : من أظلم ممن يقضي حياته ظالماً لكل شيء حتى لنفسه في هذه الدنيا ؟

ليس الكفر بظلم فحسب ، بل هو بغي وعدوان وجحود وكنود أيضاً . أو ترى الانسان مالكاً لشيء مما يجده بين يديه ؟ من ذا الذي خلق عقله ودماغه ؟ أهو نفسه أم الله عز وجل ؟ ومن ذا الذي خلق قلبه ولسانه ، وعينيه وأذنيه ، ورجليه ، ويديه ، وسائر أعضاء جسده ؟ أهو نفسه أم الله تبارك وتعالى ؟ ومن ذا الذي أحسن خلق هذه الأشياء ، وجعلها نافعة له ومكنه من استخدامها والتمتع بها ؟ أهو نفسه أم الله سبحانه وتعالى ؟

لابد أن يكون جوابك عن هذه الاسئلة ان هذه الأشياء كلها لله وحده ، وهو الذي خلقها وأحسن صورها ، وهو مالكها وهو الذي أنعم بها على الانسان ، فاذا كانت هذه هي الحقيقة ، وهي هكذا من غير شك ، فمن يكون أكثر ظلماً وأمعن في الغي والعدوان ممن

يستخدم عقله في التفكير فيما يناقض مرضاة الله تعالى ويعمر قلبه بأفكار تجلب عليه سخطه ، ويكره لسانه وعينيه ويديه ورجليه على العمل بما ينافي أحكام الله وأوامره ؟ إنك تحكم بالكنود على عبدٍ نشأ على رزق سيده ، ثم لايوفيه ما عليه من حقه ، وكذلك ترمي بالبغي والخروج على الحكومة موظفاً يستخدم ما بيده من حق التصرف ، في وجوه تخالف مصالح الحكومة ، وتنسب الى الكفران من يتناسى ما لصاحبه عليه من معروف ... ولكن ماهي حقيقة كفران الانسان وبغيه وتناسيه لما عليه من معروف لانسان آخر مثله ؟ من أين جاء هذا الانسان بما عنده من الرزق حتى يتفضل به على غيره ؟ أليس الله تعالى وحده هو الذي آتاه قوة السلطة والامر ؟ وأنى للانسان أن يمن على انسان مثله ويصنع اليه معروفاً ؟ أليس الله تعالى الذي مكنه من كل ذلك ؟ إن أكبر حق على الانسان في هذه الدنيا هو مايجب عليه نحو والديه . ولكن من هذا الذي ألقى في قلوب الوالدين حب الاولاد والحنو عليهم ؟ أم من هذا الذي جعل الأم رحيمة بمن حملته كرهاً ووضعته كرهاً ؟ أم من هذا الذي ألقى في روع الوالد أن ينفق راضيا مطمئنا ما كسبه بعرق جبينه على مضغة حقيرة ، ويضحي في سبيل تربيتها وتعليمها بكثير من أوقاته وأمواله ورفاهيته ؟

فقل لي بالله : هل هناك كفر" أفظع من كفر من لا يؤمن بالله ، ويأبى ان يقر له بالألوهية والربوبية ، ويعرض عن طاعته وامتثال أمره ؟وهل يمكن أن تجد بغيا أبشع من بغيه ، وغدراً أشنع من غدره ، وكنوداً أغلظ من كنوده ؟

ولا تظنن ّ أن الانسان يجلب الى الله شيئا من الضرر اذا كفر

به .. كيف والله تعالى ذو ملك عظيم لم يُعرف بعد أقصاه من أدناه على كل ما بذل الانسان من الجهود المتتابعة الشاقة واستعمل من الآلات الضخمة النظارة لهذا الغرض ، وله سبحانه وتعالى تسجد الارض والشمس والمريخ وغيرها من السيارات الكبيرة التي لا يأتي عليها الاحصاء فتراها ككرات صغيرة حقيرة في مملكته ، وله عز وجل خزائن السماوات والارض من غير مشارك ولا منازع ، وهو الصمد الجواد الكريم الذي يفتقر اليه الجميع وهو لايفتقر الى أحد . فأنى للانسان ، هـذا المخلوق العاجز الحقير الواهن ، أن يجلب الى الله شيئا من الضرر اذا كفر به ؟ إنه إن آمن فلنفسه وإن كفر فعليها .

ومن نتائج الكفر والعصيان المحتومة ان يكتب الخسران والخيبة للانسان فلا يهتدي الى صراط العلم المستقيم أبداً ، لان العلم الذي لا يعرف ربه ، أنى له أن يعرف غيره معرفة صحيحة ؟ وكذلك لابد أن يسلك عقله طرقاً معوجة في كل شأن من شؤون حياته ، فان العقل الذي لايهتدي الى معرفة خالقه ، أنى له أن يعرف غيره معرفة سليمة ؟ وكذلك لابد أن يهيم على وجهه ويبوء بالخيبة بعد الخيبة في كل أمر من أموره ، وان تفسد عليه أخلاقه ومدنيته وعشرته ومعيشته ، وحكومته وسياسته ، ويعيث في الارض مفسداً ، ليسفك الدماء ، ويعبث بحقوق الناس ، ويذيقهم ألواناً من الظلم والقسوة . فهكذا ينغض على نفسه الحياة بأفكاره الفاسدة وأعماله المنكرة . هذا في الحياة الدنيا ، وأما في الآخرة ، فيقوم في وجهه كل شيء – صغير أو كبير – اعتدى عليه في الدنيا ويشهد عليه ... ففي محكمة الله العادلة ، يرفع القضية

عليه عقله وقلبه ، وعيناه وأذناه ، ويداه ورجلاه ، وسائر أعضاء جسده : « رباه ! إن هذا الظالم خرج عليك في الحياة الدنيا ، وأعرض عن ذكرك ، واستخدمنا كرها وقسراً في معصيتك » . وفي هذه المحكمة العادلة ، التي لا بيع فيها ولا خلة ولا شفاعة ، تستعدي عليه تلك الارض التي مشى وسكن على وجهها عاصياً لله تعالى ، وتلك الاموال التي اكتسبها بطرق محرمة وأنفقها في سبل محرمة ، وتلك الأشياء التي تصرف فيها تصرف الغاصب عدواناً وظلماً ، وتلك الأدوات والقوى التي استخدمها في هذا الظلم والعدوان على كراهية منها . والله سبحانه وتعالى — ومن أحسن من الله حكماً — يغيث جميع هؤلاء ويقطع لها الحق الموفى بإزاء هذا الظلم العاتي ، ويذيقه عذاب الهون والخزي ، جزاء ظلمه وعصيانه .

فوائد الاسلام :

هذه هي مضار الكفر وعواقبه . فتعال ننظر الآن في ما يعود علينا به الاسلام من الفوائد اذا آثرناه ورضينا باتباعه .

قد عرفت من البيان السابق أن هذا الكون فيه من الآيات والعلامات المبثوثة في كل ناحية ما يدل على ألوهية الله وربوبيته . فهذا المعمل الكوني العظيم الذي نراه سائراً سيراً مطرداً ، مذعناً لنظام شامل وقانون ثابت ، يشهد بلسان حاله أن خالقه ومدبر أمره حاكم جليل ، ذو سلطة وقوة عظيمة ، لا يخرج عن نفوذه شيء في الارض ولا في السماء . وكذلك عرفت أن الانسان من فطرته أيضاً كسائر الكون أن يطيعه ، فتراه يطيعه ليلا ونهاراً عن غير شعور منه، وذلك أنه من المستحيل على الانسان أن يبقى حياً اذا خالف قانون الطبيعة .

غير أن الله سبحانه وتعالى ، قد وهب للانسان جانباً من الحرية في ارادته وفضّله على العالمين بملكة العلم ، وقوة الفكر ، والتمييز بين الخير والشر . والانسان وعلمه وعقله وقوة تمييزه خاضع لامتحان في هذه الحرية ، وهو دائماً بعين خالقه ينظر كيف وفيم يستعمل هذه الحرية ؟ والانسان لم يُجبر أن ينهج في هذا الامتحان منهجاً معيناً ، ولو أنه أجبر لبطلت غاية الامتحان . وذلك أمر واضح لا إشكال في فهمه ، لانه اذا جاءك في ورقة الامتحان سؤال أجبرت عليه بجواب معين معلوم ، فأي فائدة تأتي من هذا الامتحان؟ الحق أنه لن تظهر كفاءتك على الوجه الصحيح الا اذا كنت مخيراً تخييراً تاماً في كل جواب تريده ، فان كان جوابك صحيحاً ، نجحت في الامتحان وانفتح في وجهك باب الرقي والكمال في المستقبل . وإن كان جوابك غير صحيح أخفقت في الامتحان وانسد باب الرقي في وجهك . فهكذا قد متع الله الانسان بالحرية في امتحانه له ، وخيّره بما يشاء من طريق للسير في حياته .

فرجل لا يعرف فطرة نفسه ولا فطرة هذا الكون ، ويخطىء في معرفة خالقه وماله من الصفات ، ويختار طريق المعصية والبغي ، ولا يُحسن الانتفاع بما أوتي من الحرية في ارادته ، فهو مخفقٌ إخفاقاً مبيناً ، في امتحان علمه وعقله ، وقوة تمييزه بين الخير والشر ، وشعوره بالواجب ، وشاهدٌ على نفسه أنه رجل من أسفل السافلين من كل وجهة ، وينبغي أن يكون مآل أمره كما عرفت آنفاً .

ورجل آخر قد نجح في هذا الامتحان : أعمل فكره ، واستفاد مما أوتي من العلم والعقل استفادة صحيحة ، فعرف خالقه وآمن به ، رغم كونه غير مكره على ذلك . وكذلك ما أخطأ في التمييز بين

الخير والشر ، واختار الخير باستقلال رأيه ، مع أنه ما كان في وجهه شيء يدرؤه عن الميل الى الشر لو أراده . وتفطن لفطرته ، وعرف ربه ، وآثر طاعته على كونه مخيراً بين الطاعة والمعصية . فأي شيء أنجحه في هذا الامتحان وأبلغه مرامه ؟ ذلك أنه أحسن استعمال عقله ، والاستفادة من عينيه وأذنيه ودماغه ، وقضى من سويداء قلبه ألا يتبع من الأقوال والاعمال الا الصحيح . وكذلك جاء ببرهان على كونه عارفاً للحق بمعرفته اياه ، وعلى كونه متبعاً له بالاستلام له فعلاً .

أي عجب اذا حظي بالنجاح في الدنيا والآخرة رجل قد تحلى بمثل هذه الصفات العالية ؟ فهو لا يختار في ميدان العلم والعمل الا طريقاً صحيحاً مستقيماً ، لأن الذي عرف ربه وعرف صفاته ، قد عرف مبدأ العلم ومنتهاه . لا يمكن أن يتخبط مثل هذا الرجل في الطرق الملتوية المضلة في حياته ، لأن أول خطوة خطاها ، انما خطاها على علم وبصيرة ، ولن تخفى عليه غايته التي يريد الوصول اليها ، فتراه ينظر في ملكوت السماوات والارض ، ويحاول معرفة أسرار الكون بالطرق الفلسفية ، ولكنه لا يضل في ظلمات الشك والارتياب ، ويستخدم العلوم التجريبية (Science) في معرفة قوانين الطبيعة ، واستخراج ما في الكون من الخزائن الخافية ، وكشف ما أودع الله تعالى من القوى في هذه الدنيا وفي الناس أنفسهم ، واختراع أحسن الطرق للانتفاع بما في السماوات والارض ، يقوم بكل ذلك ، ويستقدح فيه قوته الفكرية والعملية ، ولكن تقواه لله تعالى ، وخشيته للقيام بين يديه يوم القيامة ، تحجزانه عند كل خطوة عن سوء استعمال هذه العلوم ، ولن تسول له نفسه أبداً ، في أي مرحلة من مراحل سيره ، أنه مالك لهذه الاشياء ، أو أنه قد

انتصر على الطبيعة ، فيمكنه ويجوز له أن يستخدم هذه العلوم في منفعته الذاتية، وفي تسخير الدنيا وتدويخ بلادها ، وفي قذف الرعب في قلوب الناس باهلاك الحرث والنسل وسفك الدماء . فما كل ذلك الفساد إلا عمل عالم (Scientist) كافر . أما العالم المسلم ، فكلما ازداد انتصاراً على العلوم التجريبية ، ومهارةً فيها ، ومعرفة بأسرار السماوات والارض ، ازداد ايماناً بالله ، وإيقاناً بتوحيده ، وشكراً لنعمته ، واعتقاداً أن ربه ما مكنه من أسباب هذا الكون الا ليكون خادماً لعباده ، ويسعى فيما يعود بالخير عليه وعلى الناس أجمعين ، فان ذلك هو الشكر الحقيقي لله تعالى على ما أولاه من النعم .

وكذلك لا يتخلف المسلم عن الكافر في تحقيقه واجتهاده في التاريخ والاقتصاد والسياسة والقانون وما اليها من العلوم والفنون الاخرى ، ولكن شتان ما بين نظريهما : يدرس المسلم كل علم من هذه العلوم بنظر صائب ، ولغاية صالحة ، وينتهي به تحقيقه الى نتيجة سليمة .. ففي التاريخ يتعظ بتجارب البشر الماضية ، ويستقرىء الأسباب الحقيقية لرقي الأمم وانحطاطها ، ويجتهد في معرفة ما كان نافعاً صحيحاً في حضارتها وثقافاتها ، ويستفيد من أحوال رجالها الصالحين في أعمالهم وأقوالهم ، ويتجنب كل ما أهلك هذه الامم وقطع دابرها من أسباب السوء والضعف .

وفي الاقتصاد يختار لاكتساب الثروة وإنفاقها طرقاً لا يقتصر نفعها على بعض البشر دون بعض ، بل يشمل نفعها جميعَ أهل الارض .

وفي السياسة يكون همه كله منصرفاً الى أن تسود الارض

مبادىء الأمن والسلام والعدل والخير والشرف والمروءة ، فلا يستبد برقاب الناس ولا يستذلهم ، ولا يستعبدهم فرد من الافـراد أو جماعة من الجماعات ، والىأن تعتبر السلطة وأدوات الحكم والسيادة وديعة من الله تستعمل في إسعاد عباد الله وفلاحهم أجمعين .

وفي القانون تكون وجهة نظرة أن يُقرَّر لجميع البشر حقوقهم وواجباتهم على غاية من العدل والامانة ولا يُظلم أحد من أي وجه من الوجوه .

والصدق والأمانة والعفاف وخشية الله واتباع الحق ، كل أولئك مزاج أخلاق المسلم . فهو لا يعيش في الدنيا الا وهو يعلم أن الله تعالى هو رب هذا الكون ، ومالك كل ما فيه من شيء ، وأن كـل ما عنده وعند الناس هو من عند الله ، وأنه لا يملك شيئاً حتى نفسه وقواه الجثمانية ، وأن كل شيء عنده أمانة من الله لا يحل له ان يتصرف فيها الا حسب مرضاته تعالى ، وأن الله سيسترد منه هذه الامانة ويحاسبه عليها حساباً دقيقاً في يوم لا ريب فيه .

فارجع الى نفسك وتفكر قليلا في أخلاق مثل هذا الرجل : يطهر قلبه من الظنون الباطلة ، وذهنه من الهم بالسوء ، ويغض من طرفه عن النظرة الخاطئة ، ويصم سمعه عن الفاحشة ، ويحفظ لسانه عن النطق بشيء يخالف الحق ، ويؤثر أن يموت جوعاً على أن يملأ بطنه برزق حرام ، ولا يبسط يده بالظلم والاعتداء على حق غيره ، ولا يطأ بقدمه طريق السيئة ، ولا يطأطىء رأسه أمام الباطل ولو صلب وقطع جسده تقطيعاً ، ولا يحقق أملاً من آماله ولا حاجة من حاجاته عن طريق الشر والظلم والعدوان ، وأعز شيء عنده هو الحق والصدق والامانة ، لا يضن في سبيلها بشيء من نفسه أو ماله ، وأبغض شيء

في نظره هو الظلم والكذب والخيانة ، لا يرضى بانتصارها واختيار سبيلها خوفاً على نفسه من مضرة أو رجاء في منفعة .

فمثل هذا الرجل هو الذي يفوز بفلاح الدنيا أيضا .

نعم ! ليس في الدنيا رجل أكثر منه عزاً وشرفاً وفضيلةورفعة ، لأن رأسه لا يتطأطأ ، ويده لا تمتد أمام أحد غير الله ، فأنىَ للذل والهوان أن تدركه أسبابهما .

وليس فيالدنيا رجل أكثر منه قوة وإقداما وجراة، لانه لايخاف غير الله ولا يعلق رجاءه بسواه ، فأي قوة تقدر أن تنكبه صراط الحق، واي ثروة تقدر ان تشتري متاع ايمانه ؟

وليس في الدنيا رجل أغنى منه وأكثر ثراء ، لانه ليس بكلب الدنيا ، ولا بحريص على حطامها الفاني ، ولا بمتبع لشهواته النفسية، وهو يقتنع بما يكسبه بسعيه المشروع ، ولا يمد عينه الى ثروة محرّمة ، ويرفضها بكل احتقار واستخفاف ولو حشدت اليه منها القناطير المقنطرة ... هذه هي ثروة القناعة والطمأنينة ، ولا يمكن ان تكون في الدنيا ثروة اغلى منها قيمة .

وليس في الدنيا رجل احب منه الى قلوب الناس ، وأعز في نظرهم ، لانه يؤدي الى كل منهم حقوقه كاملة ، ولا يبخس منها شيئاً ، ويحسن اليهم ، ولا يسيء الى أحد منهم ، ويسعى في سعادتهم ، ولا يبتغي منهم جزاء ولا شكورا ... كل ذلك مما يجذب اليه قلوب الناس ، ويضطر كلاًمنهم الى حبه واحترامه وإجلاله .

وليس في الدنيا رجل يحوز في نفسه ثقة الناس واعتمادهم اكثر منه ، لانه لا يخون اماناتهم ، ويعاملهم دائما بالصدق والحسنى، ويوفي لهم كل ما يعاهدهم عليه ، ولا يبتغي عن الصدق والامانة بدلاً